طُرُقُ تفسير القرآن الكريم

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ

مع العالم ـ الجزء الأول)

من الصفحة ١٦٩ حتى الصفحة ١٨٠

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

ـ المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

طرقُ التَّفسير

أوَّلاً: تفسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ:

وهذا ما فعله سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتح هذا البابَ للصَّحابة رضي الله تعالى عنهُم.

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ[1] عن عبدِ الله بن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على المُسلمينَ، فقالُوا: يا رسُولَ الله، أيُّنا لا يظلمُ نفسهُ؟.

قال: «ليسَ ذلك، إنَّما هو الشِّركُ، ألم تسمعُوا ما قال لُقمانُ لابنه وهو يعظهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾» [لقمان: ١٣].

فقد فهم الصَّحابة الكرامُ رضوان الله تعالى عليهم من ظاهرِ الآية أنَّ المؤمن لا يأمن إلا إذا خلا عن كلِّ الذُّنوب بأنواعها، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أي: لم يخلطُوا إيمانَهُم بذنبٍ ولو

---

(١) في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] /٣٤٢٩/ (٦/٤٦٥).

كان صغيراً ، فذكرُوا ذلك للنَّبي عليه الصَّلاة والسلام ، فبيَّن لهُم أنَّ المراد من: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، أي: لم يخلطوا إيمانهُم بالشِّرك.

ويدُلُّ هذا الحديثُ أيضاً على أنَّه لا يجوزُ للإنسان أن يقتصر على اللُّغة العربيَّة وقواعدها في فهم معاني القُرآن الكريم ، وأنَّه لابدَّ من الرُّجوع إلى أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ، التي هي بيانَاتٌ للقُرآنِ الكَريم ، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ، وهذا بعد أن بيَّن سبحانه لرسُوله صلى الله عليه وآله وسلم معاني القُرآن الكريم ومقاصِدهُ بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩] أيْ: بيانه لك يا رسُولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث المتقدِّم فهمَ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم من الظُّلم العمومَ ، لأنَّها نكرةٌ جاءت بعد نفي ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: ولم يخلطوا إيمانَهم بظُلمٍ أي: بذنبٍ ولو كان من الصَّغائر؛ هذا ما فهمه الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم فشقَّ ذلك عليهم ، ولمَّا سألُوا النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بيَّن لهم أنَّ المراد من الظُّلم في الآيَة هُو الشِّركُ ، ولم يُوافِقهُم على فهمِهم ؛ وإن كان مُوافقاً لأُصُول اللُّغة العربيَّة ، ثمَّ تلا عليهم قولَه تعالى مخبراً عن لُقمان عليه السَّلام: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فقد فسَّر لهم القرآنَ بالقرآنِ ، وبيَّن لهم أنَّ المُراد بالظُّلم في

الآيَةِ هو الشِّرك ، وهذا ما سلكهُ الصَّحابة الكرام في فهمِ القُرآنِ الكريمِ.

ومن هذا استدلالُ حبرِ الأمَّةِ عبد الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُما بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] استدلالُه بهذه الآيَة الكريمة على إثباتِ عذَاب القَبرِ.

ففهِمَ أنَّ العذابَ نوعَانِ: العذابُ الأكبرُ ، وهو عذابُ الآخرةِ؛ وأمَّا الأدنى ـ أيْ: الأَقْرَب ـ فهذا بعضُه في الدُّنيا وبعضُه في البَرزخِ.

استدلَ على ذلك من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أيْ: بعضِ العذابِ الأدنَى ، فالعذابُ الأدنَى موزَّعٌ على عالمينِ: عالَمِ الدُّنيا ، وعالم البرزَخِ.

ودليلهُ على ذلك أيضاً قولهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦] أيْ: نُريك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعض العذابِ الذي نعدهُم وأنت في الدُّنْيا؛ فهذا تفسيرٌ لقوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١] أي: بعض العذاب الأدْنَى.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وهو العذابُ الدُّنيويُّ ، الذي هو بعضُ العذاب الأدنى الذي منه عذابُ القبرِ؛ وهو غير العذاب الأكبر الذي يكونُ يومَ القيامة.

وهكذا فبعرض هذه الآيات على بعضها يُستدلُّ على أنَّ عذاب

القبر ثابتٌ بالنَّص ، كما أنَّ هناك آياتٍ وأحاديثَ أخرى تدُلُّ عليه .

ثانياً : تفسير القرآنِ بالحديث (السُّنَّة المطهرة) :

كما قال تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : «ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ»[١] أي : ومثلهُ وحياً من الله لبيانِ معاني هذا القُرآنِ ، وهو السُّنَّة والحديثُ .

ثمَّ هناكَ مفاهيمُ الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم وتفاسيرهُم ، فهي معتمدةٌ ، لأنَّهم عاصروا فترة نزولِ القُرآنِ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن هذا ما فسَّره وفهمهُ عمرُ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه لمَّا قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] أي : عُلُوّاً ومُضايقةً .

فقدْ رُويَ[٢] أنَّ عمرَ رضي الله تعالى عنه قرأ هذا الآيةَ : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بنصب الرَّاء ، وقرَأها بعضُ من عنده من أصحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ حَرَجًا ﴾ بالخفضِ .

فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه : أبغُوني رجلاً من كنانَةَ ،

---

(١) أخرجه أبو داود عن المقدام بن معدي كربَ في كتابِ السُّنَّة ، بابٌ في لزومِ السُّنَّة / ٤٦٠٤/ (٥/ ١٠) .

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حميدٍ ، وابنُ جرير ، وابنُ المنذرِ ، وأبو الشَّيخ ، كما في (الدرِّ المنثور) عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

واجعلُوهُ راعياً ولكن مُدْلجيًّا[1] ، فأتوهُ به؛ فقالَ لهُ عُمرُ رضي الله تعالى عنه: يا فتى ، ما الحرجةُ فيكُم.

قال: الحرجةُ فينا ، الشَّجرةُ تكونُ بينَ الأَشجَارِ التي لا تصِلُ إليها راعيةٌ ، ولا وحشيَّةٌ ، ولا شيء.

فقال عُمر رضي الله تعالى عنه: كذلِكَ قلبُ المنافقِ ، لا يَصِلُ إليه شيءٌ من الخيرِ.

فمن هذا المثلِ القُرآنيِّ فهمَ عُمَر رضي الله تعالى عنه بأنَّ الإيمانَ لا ينتهي إلى قلبِ الكافرِ والمُنافقِ.

وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ من طُرقِ التَّفسير: أن تفسِّرَ القُرآنَ بمُوجبِ اللُّغة العربيَّة ومفاهيمها ، إن لم يرد نصٌّ ـ أيْ: آيةٌ تفسِّر آيةً ، أو حديثٌ يفسِّرها ، أو فهمٌ عن أحد الصَّحابة أو أتباعِهم ـ فلتكنِ الحقائقُ اللُّغويَّة ، أمَّا التَّفسير على غير هذا فهو تأوُّلٌ وافتراءٌ على الله سبحانه وتعالى.

وقد يعطي الله عبداً في فهمِ آية ما لم يُعطِ غيرهُ ، كسيِّدنا عُمرَ وسيِّدنا عليٍّ وسيِّدنا عبد الله بن عبَّاس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم ، فإنَّ الله تعالى قد يخُصُّ من شاء ببعضِ المفاهيمِ.

ومن هذا ما رواهُ البخاريُّ[2] وغيرُه ، عن أبي جُحيفةَ رضي الله تعالى عنه قال: (سألتُ عليّاً رضي الله تعالى عنه: هل عندكم شيءٌ ممَّا ليس في القُرآنِ[3]؟.

---

(١) وذلك لأنَّ بني مُدلجٍ فيهم الفصاحةُ في لُغتهِمْ.

(٢) في كتاب الدِّيَاتِ ، بابٌ لا يُقْتَلُ المسلمُ بكافر / ٦٩١٥/ (١٢/ ٢٦٠).

(٣) وكان غرض أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه من هذا السؤال إزالة إشكالٍ من =

فقالَ: والَّذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَّسمة، ما عِندنا إلا ما في القُرآنِ، إلا فهماً يُعطى رجلٌ في كتابه، وما في الصَّحيفةِ.

قلتُ: وما في الصَّحيفةِ؟.

قال: العقْلُ، وفكاكُ الأسير، وأن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافِرٍ).

وهذه أُمورٌ عامَّةٌ ليستْ خاصَّةً بأهلِ البَيتِ.

فقد يفهَمُ البَعْضُ من القُرآنِ ما لا يفهمُهُ غيرهُ، وبهذا اختلفت مقاديرُ العُلَماءِ، لأنَّهُم كلُّهم يستندُون إلى قولِ الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولكن اختلفتْ مراتبهم في الفهمِ.

قولهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الحكمةُ تأتي على معانٍ كثيرةٍ، فهنُاك الحكمةُ القُرآنيَّةُ، وهناكَ الحكمةُ النَّبوية ـ أي: نزلت بالوحي النَّبويِّ لا بالوحي القرآنيِّ ـ.

فمن الحكمِ القُرآنيَّة قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

أي: جاء كفَّارُ قُريش وغيرهم من الأخبار الإلَهيَّة التي نزلت عليك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والتي فيها أخبارُ من قبلهُم، وعنادهم وكفرهم؛ وكان هذا لمَّا طلبت كفَّارُ قريشٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيةً كونيَّةً أن يشُقَّ لهمُ القَمَر، وحصلَ هذا، ولكنَّهم بقَوا على عنادِهم وجحودهم، وقالوا:

= ادَّعى ذلك، وهو أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قد خصَّ أهلَ البيتِ بشيءٍ دون الناسِ.

سحرٌ مستمرٌّ ، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٣].

ثمَّ وبَّخهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: مِنْ أخبار مَنْ قبلهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه موعظةٌ لهم ، ففي هذه الأنباء ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ﴾ بلغتِ القلوبَ والصَّميم ، ولكن لِمَنْ كانَ له قلبٌ ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: لقدْ بَلَغَتْهم أخبارُ من قبلهم من الأمم السَّابقة ، كيف جاءتهُم رسلهم بالآيات الكونيَّة ، ولكنَّهم بقَوا على كُفرهم وعنادهم ، فأهلكهمُ الله تعالى ، فليعتبروا!!.

ومن الحكم القُرآنيَّة أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

فقوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: باعتبار أنَّه الرَّبُّ وأنتم عبادهُ، فيجبُ عليكم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وعبادته تعالى على حسب ما شرع، لا كما تهوى أنفسكم، وإنَّ مَنْ عَبَدَه على حسب ما يهوى فقد عبد هواه، ولم يعبدْ ربَّه سبحانه؛ وهذا كلُّه من حِكَمِ الرُّبوبيَّة.

وهناك الحكمُ النَّبويةُ التي جاءت عن طريقِ النُّبوَّة، فما من نبيٍّ إلا وعلَّمه الله تعالى الحكمة، أي: الحكمةَ النَّبويَّة على حسب مقام نبوَّته.

والحكمةُ تقتضي العلم الصَّحيح، والعمل الصَّائب، فلا يُقالُ عن أحدٍ حكيمٌ، إلا إذا كان عندَه علمٌ صحيحٌ بالحقائق والدَّقائقِ، وعمل بمُوجب هذا العلم فأصابَ؛ فالحكمةُ هي صحَّةُ العلمِ وصوابُ العملِ.

ويدلُّ على أنَّ كلَّ نبيٍّ قد أعطَاه الله تعالى الحكمةَ، قولُه جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: عامَّةً ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال سيِّدنا عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: (لم يبعث الله نبيّاً؛ آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم، لئنْ بُعِثَ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به، ولينصرنَّه، ويأمُرُه فيأخذُ العهدَ على قومه، ثمَّ تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾)[1] [آل عمران: ٨١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُمَا في هذه الآية: (ثم ذكرَ ما أُخِذَ عليهم ـ يعني: على أهلِ الكتابِ ـ وعلى أنبيائهم من الميثاقِ بتصديقِهِ ـ يعني: بتصديقِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا جاءهم، وإقرارهم به على أنفُسهمْ)[2].

وإنَّ الحكمة التي أعطيها سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعةٌ لجميع حكم النَّبيين قبلَهُ.

قال الله تعالى في داودَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]،

---

(١) أخرجه ابنُ جرير، انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٢) قال في (الدر المنثور) عند الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرجه ابن جرير وابن المنذر. اهـ.

حكمةَ تدابير المملكة لأنَّه كان ملكاً.

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في المقامِ لا في الأملاكِ.

أمَّا فصلُ الخطابِ: فهو القولُ الفاصلُ بين الحقِّ والباطلِ، الذي من جملته القولُ البليغُ، وقد أُوتي هذا عليه الصَّلاة والسلامُ: «وأوتيتُ جوامعَ الكلمِ»[1].

ومن جملَةِ فصْلِ الخطابِ: إعادةُ الكلامِ على حسب المصلحةِ، وكان عليه الصَّلاة والسلام يعيد الحديثَ ثلاث مرَّات، إذا كانَ الحديثُ يقتضيْ الإعادةَ، وليسَ في هذَا إملالٌ، ففي المرَّةِ الأُولَى يسمعُها مَنْ سمعَها، وفي المرَّةِ الثَّانية يسمعُها من لَمْ يسمعهَا أولاً، ومن سمع أوَّلاً استفاد من الثَّانيَة زيادةَ ضبْطِ الكلمَةِ وفي المرَّةِ الثَّالثة تزيدُهُ معنى وفهماً[2].

وكذلكَ سيِّدنا عيسى عليه الصَّلاةُ والسلامُ، فقد أُعطِيَ من الحكمَةِ على حسب نبوَّتهِ ورسالَتهِ، وقد نُقِلَ من كلامهِ حكمٌ كثيرةٌ.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «نصرتُ بالرُّعب على العدوِّ، وأوتيتُ جوامع الكلمِ، وبينما أنا نائمٌ أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض؛ فوضعت في يديَّ» رواه البخاري في كتاب التَّعبير، باب المفاتيح في اليد /٧٠١٣/ (١٢/ ٤٠٠)، ومُسلمٌ ـ واللفظُ لهُ ـ في كتاب المساجد ومواضع الصَّلاةِ /٥٢٣/ (٢/ ٦٦١).

(٢) فقد جاء في (صحيح) البخاري، في كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه /٩٤/ (١/ ١٨٨)، عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه، عَنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: (أنه كان إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلَّمَ عليهم؛ سلم عليهم ثلاثاً).

وأُعطِيَ الحكمةَ أيضاً فيما يتعلَّقُ بالعلاجَاتِ ومُداواةِ المرضى ، قالَ تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

فكلٌّ منهم له علاجٌ خاصٌّ وإن كان علاجُهُ لهم بالمسحَةِ النَّبويَّة ، إلا أنَّ هذا يحتاجُ إلى علم نبويٍّ وحكمةٍ؛ فيقرأُ على هذا كذا وكذا من الأسماء ، ويمسحُ على هذا ، مع مُلاحَظَةِ عدم تعطيلِ الأَسبابِ الظَّاهرة من العلاجَات ، لأنَّه لا يمكنُ لنبيٍّ أن يعطِّل الأَسبابَ التي شرعها الله تعالى ، فهُم يأخذونَ بالأسبَابِ الظَّاهرَةِ والبَاطِنَةِ؛ وهذا من الحكمةِ التي أُوتُوْهَا.

أمَّا أن تقولَ بالأخذِ بالأَسْبَابِ الباطِنَةِ دونَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ ، فيقالُ لكَ: إنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ خاضَ المعارِكَ مع أصحابِهِ الكرامِ ، فبدَلاً من ذلك فإنَّ دعوةً واحدةً منه تُهلِكُ الكُفَّارَ كلَّهُم!!.

فهذا ليس من الحكمة في شيءٍ ، لأنَّ فيه تعطيلاً للأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ من جهادٍ وغيرِهِ ، فالحكمةُ النَّبويَّةُ مصحوبَةٌ بالعلم الصَّحيح ، الذي من جملَتِه معرِفَةُ أمزِجَةِ النَّاسِ.

ومن هذا ما كان صلَّى الله عليه وآله وسلم يفعلُه مع من يسألُهُ: «أيّ الأعمالِ خيرٌ»؟ فيُعْطِي الجوابَ على حَسَب حالِ السَّائلِ ومزاجهِ ومصلحتِهِ.

فقد قال لأحدهم: «الصَّلاةُ لوقتِهَا»[1].

---

(١) رواه البخاريُّ في كتاب التَّوحيد ، بابٌ وسمَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم الصَّلاة عملاً / ٧٥٣٤/ (١٣/ ٥١٠) ، عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «الصَّلاة =

وقال لآخرَ: «تُطعِمُ الطَّعام، وتُقْرِئُ السَّلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرِفْ»[1]، وهكَذَا...

وقال لِرَجُلٍ عندما قال له: أوصني، قال: «لا تغضَبْ»[2].

وقال لمعاذٍ رضي الله تعالى عنهُ لمَّا قال له أوصني: «أُوصيكَ بتقوى الله»[3].

ونسأل الله التَّوفيقَ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

= لوقتها، وبِرُّ الوالدين، ثمَّ الجهادُ في سبيل الله».

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند): (٢/ ١٦٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، أنَّ رجلاً سأل النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ خيْرٌ؟ قال: «أن تُطعِمَ الطَّعام، وتُقرِئَ السَّلام على من عرفْتَ ومن لم تعرِفْ».

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الأدبِ، بابُ الحذَرِ من الغضَب /٦١١٦/ (١٠/ ٥١٩)، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال للنَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أوْصني، قال: «لا تغضب»، فردَّدَ مراراً، قال: «لا تغضب».

(٣) رواه الإمام أحمد في (مسنده): (٢/ ٢٣٦)، عن معاذٍ رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: يا رسولَ الله أوصني، قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ» أو «أينما كنت» قال: زِدْنِي. قال: «أتبعْ السَّيئةَ الحسنةَ تمحُهَا» قال: زدني، قالَ: «خالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ».